الفصل الثالث والعشرون

ليبنتز

١٦٤٦ - ١٧١٦

- فيلسوف القانون :

كان ثمة هوة فى الشخصية والخلق والفكر تفصل بين سبينوزا وليبنتز ، فهناك اليهودى المنعزل ، الذى لفظته اليهودية ، والذى لم يتقبل المسيحية ، الذى عاش فى أحضان الفقر فى حجرة متواضعة ، وأنجز كتابين اثنين ، وأخرج فى أناة فلسفة أصيلة جريئة يمكن أن تنفر منها كل الديانات ، والذى قضي نحبه متاثرا بالسل فى الرابعة والاربعين ، الى جانب الألمانى رجل الدنيا المشغول برجال الدولة والبلاط ، الذى جال فى كل أنحاء أوربا الغربية تقريبا ، الذى دس بأنفه فى روسيا والصين ، وقبل البروتستانتية والكاثوليكية ، ورحب بعديد من مناهج الفكر واستخدمها . وكتب خمسين رسالة ، وأحب الله كما أحب الدنيا ، فى تفاؤل شديد ، وعمر سبعين عاما ، وليس بينه وبين سلفه من وجه شبه الا أن جنازة كل منهما كانت موحشة . وهنا فى جيل واحد ظهر النقيضان فى الفلسفة الحديثة .

ولكن قبل أن نتناول الصورة المتقلبة والمتعددة الألوان لرجل ، فلنعترف ببعض فضل يسير للفكر الألمانى . فقد بدأ صمويل فون بوفندورف مسيرته فى ١٦٣٢ ، وهو نفس العام الذى بدأ فيه سبينوزا ولوك . وبعد أن درس فى ليبزج وبينا قصد الى كوبنهاجن معلما فى أسرة أحد الدبلوماسيين السويديين ، واعتقل معه عندما أعلنت السويد الحرب على الدنمرك ، وخفف من ضجر السجن بوضع نهج للقانون الدولى ، فلما أطلق صراحه رحل الى ليدن حيث نشر نتائج بحثه تحت عنوان « عناصر القانون الدولى » (١٦٦١) ، الذى سر به شارل لويس ناخب البالاتينات (وهو نفس الأمير الذى دعا سبينوزا فيما بعد) الى حد أن الناخب استدعى المؤلف الى هيدلبرج ، وأنشا له كرسي الأستاذية

فى القانون الطبيعى والقانون الدولى ـ وهو أول كرسي من نوعه في التاريخ . وهناك وضع دراسة عن « مملكة المانيا » آزعجت ليوبولد الأول ، لمهاجمتها الامبراطورية الرومانية المقدسة وأباطرتها . وهاجر بوفندورف الى السويد وجامعة لوند (١٦٧٠) حيث نشر أروع أعماله « القانون الطبيعى والناس » (١٦٧٢) . وفى محاولته اتخاذ موقف وسط بين هوبز وجروتيوس ، لم يطابق « قانون الطبيعة » وبين صراع الأفراد بعضهم بعضا ، بل طابق بينه وبين « العقل الصحيح » وأضفى « الحقوق الطبيعية » (وهى حقوق كل الكائنات العقلانيـــة) على اليهود والأتراك (المسلمين) ونازع فى أن القانون ينبغى الا ينفـــذ الا بين الدول المسيحية فقط ، بل كذلك فى علاقاتها مع « الكفار » على قدم المساواة . وسبق جان جاك روسو بنحو قرن من الزمان ، حين أعلن أن ارادة الدولة ، هى ، وينبغى أن تكون ، جماع ارادات الأفراد الذين تتألف منهم الدولة . ولكنه ذهب الى أن العبودية أمر مرغوب فيـــه ، وسيلة لانقاض عدد المتسولين والأفاقين واللصوص (١) .

وظن بعض القساوسة السويديين أن هذه النظريات لم تقم كبير وزن لله والكتاب المقدس فى الفلسفة السياسية ، وحرضوا على وجوب اعادة بوفندورف الى المانيا . ولكن شارل الحادى عشر دعاه الى ستوكهلم وقلده منصب المؤرخ الملكى . وقابل الأستاذ حسن الصنيع بأن كتب سيرة حياة الملك ، وتاريخا للسويد . وفى ١٦٨٧ ، وربما تطلعا الى التجوال أهدى بوفندورف الى ناخب براندنبرج الأكبر ، رسالة عن « العـــلاقة بين العقيدة المسيحية والحياة المدنية » يدافع فيهـــا عن التســـامح . وسرعان ما قبل دعوة الى برلين ، وأصبح مؤرخا لفردريك وليم ، وعين بارونا ، وقضي نحبه (١٦٩٤) . وظلت كتاباته لمدة نصف قرن أبرز الأعمال وأكثرها أثرا وانتشارا فى الفلسفة السياسية والقانونية فى أوربا البروتستانتية ، وساعد تحليليهـــا الواقعى للعـــلاقات الاجتماعيـــة فى الأحداث التى عملت على انكماش نظرية حقوق الملوك الالهية .

وبرز تدهور التفسيرات اللاهوتية لأعمال البشر فى أنشطة بلثازار بكر Bkker وكريستيان توماسيوس . وكان بكر كاهنا يتـــولى المهام الدينية لجماعة من الناس فى فريزلند ، أفسد عقيدته بقـــراءة ديكارت ، فاقترح تطبيق العقل على الاسفار المقدسة ، وفسر الشياطين

التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس بانها أوهام شعبية أو مجازات ، وتتبع فكرة الشيطان فى تاريخ ما قبل المسيحية وكان من رأيه أنها فكرة مدسوسة على المسيحية ، وانتهى الى أن الشيطان خرافة ، ونفى وجوده فى بيان باللغة الهولندية ، « العالم المسحور » (١٦٩١) . ووجهت الكنيسة أعنف اللوم والتقريع الى بكر ، احساسا منها بأن الخوف من الشيطان بداية العقل والحكمة ، وعانى الشيطان بعض الخسارة فى مكانته لا فى أتباعه .

وواصل توماسيوس المعركة . وعلى حين ظل يتقبل الأسفار المقدسة هاديا الى العقيدة والخلاص ، تاقت نفسه الى اتباع منهج العقل لمجرد الوصول الى الدليل ، ولتشجيع التسامح الدينى . ولما كان أستاذ القانون الطبيعى فى ليبزج (١٦٨٤ — ١٦٩٠) فانه أساء الى الكلية والكنيسة بأصالة آرائه وأساليبه ولغته . وهاجم خرافات عصره فى سخرية ألمانية عنيفة . واتفق مع بكر فى استبعاد « الشيطان » من الديانة ، وشجب الاعتقاد فى السحر باعتباره جهالة فاضحة ، وتعذيب السحرة باعتباره وحشية اجرامية . وبفضل تأثيره ونفوذه ، وضع حد لمحاكمات السحرة والمشعوذين فى ألمانيا . وليزيد الطين بلة حاضر تلاميذه بالألمانية بدلا من اللاتينية ، منتقصا نصف جلال أصول التدريس . وفى ١٦٨٨ بدأ ينشر عرضا أوريا للكتب والأفكار ، وربما كان لزاما علينا أن نسميه أول صحيفة جادة فى ألمانيا ، ولكنها عرضت ألوان المعرفة فى شيء من اليسر ، وغلفت البحث الجاد بالدعابة ، وسميت « أفكار هازلة وجادة ، عقلانية وسخيفة حول كل أنواع الكتب والقضايا السارة والنافعة » . وأزعج دفاعه عن « التقويين » (التقوية حركة دينية ظهرت فى ألمانيا فى القرن السابع عشر أكدت على دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية) ضد رجال الدين التقليديين ، وعن التزاوج بين اللوثريين والكلفنيين ، أزعج السلطات الى حد أنهم حظروا عليه الكتابة أو القاء المحاضرات ، وأمروا فى النهاية باعتقاله (١٦٩٠) . فهرب الى برلين ، وعينه الناخب فردريك الثالث أستاذا فى هالى ، وأسهم فى تنظيم الجامعة هناك ، وسرعان ما جعلها أقوى مركز للفكر فى ألمانيا . وفى ١٧٠٩ دعته ليبزج للعودة ولكنه أبى ، وبقى فى هالى أربعة وثلاثين عاما حتى آخر حياته ، وافتتح عصر الاستنارة الذى أنجب لسنج وفردريك الأكبر .

وتابع بعض المتحمسين ثورتهم الى أقصي درجات الالحاد ، فنبـذ ماتياس كنوتزن من هولشتين أى معتقد خارق للطبيعة « اننا فوق كل شيء ننكر الله (٢) » . واقترح أن يستبدل بالمسيحية وكنائسها وكهنتها « ديانة وضعية » « ديانة الانسانية » مستبقا بذلك أوجست كومت ، وأن يؤسس الأخلاق على تربية الضمير تربية قائمة على المذهب الطبيعي فقط (١٦٧٤) وقيل انه كان له ٧٠٠ من الأتباع ، وربما كان فى هذا مبالغة ، ولكننا نلاحظ أنه فيما بين عامى ١٦٦٢ ، ١٧١٣ نشر على الأقل اثنان وعشرون كتابا فى ألمانيا ، هدفها نشر الالحاد أو تفنيده (٣) .

ورثى ليبنتز « لانتصار المفكرين الأحرار الواضح » ، فكتب حوالى عام ١٧٠٠ « فى أيامنا هذه » ، يبدى كثير من الناس قليلا من الاحـترام والاجلال للوحى ... أو المعجزات (٤) » . وأضاف فى ١٧١٥ : ان الديانة الطبيعية ينتابها كثير من الضعف ، ويعتقد كثيرون أن النفوس جسدية ، وآخرون أن الله نفسه جسدى . ويرتاب مستر لوك وأتباعه فى أن النفوس غير مادية ومآلها الهلاك بشـكل طبيعى (٥) . ولم يكن ليبنتز راسخ العقيدة الى حد كبير ، ولكنه رجل الدنيا ورجـل البلاط ، فتساءل الى أين تنتهى العقلانية المتصاعدة ، وماذا عساها أن تفعل بالكنائس والاخلاق والعروش . هل من المسـتطاع الرد على العقلانيين بلغتهم وانقاذ عقيدة الآباء والأجـداد من أجل سـلامة الأبنـاء ؟ .

٣ - سنى العمل الجـاد :

كان جوتفريد ولهلم ليبنتز فى الثانية من العمر حين وضعت حرب الثلاثين عاما أوزارها . ونشأ فى فترة من أكثر فترات التاريخ الألمانى عقما وشقاء . ولكن تهيأت له ، كل فرص التعليم المتاحة آنذاك ، لأن أباه كان أستاذا لفلسفة الاخلاق فى جامعة ليبزج ، وكان جوتفريد فتى ذكيا متلهفا على المعرفة ، ولوعا بالكتب . وكانت مكتبة أبيـه مفتحة الأبواب أمامه تدعوه ليأخذ ويقـرأ . وبدأ دراسـة اللاتينية فى سن الثامنة ، واليونانية فى الثانية عشرة . والتهم التاريخ فاصبح متعـدد جوانب العلم والمعرفة . وفى سن الخامسة عشرة التحق بالجامعة حيث

كان توماسيوس المثير من بين معلميه . وفى سن العشرين تقدم لنيل درجة الدكتوراه فى القانون ، ولكن جامعة ليبزج رفضت لصغر سنه . ولكنه سرعان ما حصل عليها من جامعة نورمبرج فى التدورف . وكان لرسالة الدكتوراه التى قدمها هناك دوى كبير الى حد أنهم عرضوا عليه فى الحال منصب الاستاذية ، ولكنه أبى محتجا بأن « فى مخيلته أشياء مختلفة » ، ان قليلا جدا من كبار الفلاسفة شغلوا كراسي الجامعة .

ونراه الآن ، وهو آمن ميسور الحال من الناحية المادية ، حر منطلق من الناحية الفكرية ، يغمس يديه فى كل الحركات والفلسفات التى كانت تهيج ألمانيا التى بعثت من جديد ، وكان قد درس مناهج فلاسفة السكولاسية فى ليبزج ، واحتفظ بمصطلحاتهم الفنية وكثير من أفكارهم ، مثل برهانهم الأونطولوجى (أو نطولوجيا : علم الوجود) على وجود الله ، وتشرب تعاليم ديكارت تماما ، ولكنه ليجعلها سائغة أضاف اليها شيئا من الملح من اعتراضات جاسندى ومذهبه الذرى . وانتقل الى هوبز وامتدحه بأنه مدقق . وغازل المذهب المادى (٦) . وأقام حينا من الزمن فى نورمبرج (١٦٦٦ - ١٦٦٧) حيث اختبر التصوف أو المذهب الباطنى عند اخوة الصليب الوردى « التى كان قد أسسها المشتغلون بالكيمياء القديمة والاطباء ورجال الدين حوالى عام ١٦٥٤ ، وأصبح سكرتيرا لها ، وأخذ ينقب فى الكيمياء القديمة ، وهو فى هذا كثير الشبه بما كان يفعل منافسه اللاحق نيوتن فى كمبردج . ولم يترك فكرة الا جربها واقتبسها . وقبل بلوغه الثانية والعشرين من عمره كان قد كتب عدة رسائل ذات مجال ضيق ، ولكنها تفيض بالثقة .

ولفتت احدى هذه الرسائل « طريقة جديدة لتعليم القانون ودراسته » نظر أحد الدبلوماسيين المقيمين فى نورمبرج آنذاك ، هو جوهان فون بوينبرج ، الذى أشار على المؤلف الشاب باهدائها الى الأسقف ناخب مينز ، ورتب أن تقدم اليه شخصيا . ونجحت الخطة ، وفى ١٦٦٧ التحق ليبنتز بخدمة الناخب ، فى أول الأمر ، مساعدا فى مراجعة القوانين ، ثم عضوا فى المجلس . وبقى فى ميبنز خمس سنين اعتاد فيها على رجال الدين واللاهوت والطقوس الكاثوليكية ، وبدأ يراوده حلم اعادة توحيد المذاهب المسيحية الممزقة ، ومهما يكن من امر فان الناخب كان أكثر اهتماما بلويس الرابع عشر منه بلوثر ، لأن الملك

المنهوم الذى لا يشبع كان يسير جيوشه الى الاراضي الوطيئة واللورين ، وهى جد ملاصقة لالمانيا ، وكان واضـــحا أن الملك متلهف على ابتلاع أراضي الراين • فكيف يتسنى وقفه ؟

وكان لدى ليبنتز خطة لهذا ــ وفى الحق خطتان ، بلغتا حد البراعة من شاب فى الرابعة والعشرين • وكانت الخطة الأولى هى توحيد ولايات ألمانيا الغربية فى « اتحاد الراين » للدفاع المتبادل (١٦٧٠) • أمـا الثانية فكانت تعتمد على صرف نظر لويس الرابع عشر عن ألمانيا باغرائه بالاستيلاء على مصر التى كانت آنذك تحت حكم الاتراك • وكانت العلاقات آنذاك متوترة بين فرنسا وتركيا • فاذا قدر الملك لويس أن يرسل حملة لفتح مصر (فيسبق بذلك نابليون بمائة وثمانية وعشرين عاما) فانه ستكون له السيطرة على التجارة ــ بما فى ذلك تجارة هولنده ــ التى تمر عبر مصر الى الشرق ، ولأبعد الحرب عن أرض فرنسا ، ووضـــع نهاية لتهديدات تركيا للعالم المسيحى ، ولأصبح المنقذ الذى ترنو اليه الأبصار بالتبجيل والاجلال بدلا من السوط الذى تخشاه أوربا ، وكتب بوينبرج بهذا الى الملك لويس الرابع عشر ، وطوى كتابه على مخطط للمشروع بقلم ليبنتز نفسه+ • فدعا سيمون أرنولددى بومبـون وزير الخارجية الفرنسية ، ليبنتز (فبراير ١٦٧٢) ليجىء ليعرض المشروع على الملك • وفى مارس شخص رجل الدولة ذو الستة والعشرين ربيعا الى باريس •

ولكن القادة أحبطوا مشروع ليبنتز كما دمروا أنفسهم • ذلك أنه لدى وصوله الى باريس كان لويس قد سوى نزاعه مع الأتراك ، وقرر مهاجمة هولنده ، وفى ٦ أبريل أعلن الحرب • وأبلغ بومبون ليبنتز أن الحرب الصليبية لم تعد ملائمة لهذا العصر ، ورفض السماح له بالمثول بين يدى الملك • فكتب الفيلسوف الذى ظل يراوده الأمل ، مذكرة الى الحكومة الفرنسية ، أرسل خلاصة لها « مشروع مصر » الى بوينبرج •

+قال شبنجلر « ولو كان هذا سابقا لأوانه ، فان ليبنتز وضع المبدأ الذى تعلق به نابليون بشكل أكثر وضوحا ، بعد وجرام ، أى أن أية مكاســب على الراين أو فى بلجيكا لن تعمل بصفة دائمة على تحسين موقف فرنسا ، وأن عنق السويس لابد يوما أن يكون مفتاح السيطرة على العالم (٧) •

ولو تم تنفيذ الاقتراح بنجاح ، لاستولت فرنسا ـ لا انجلترا ـ على الهند، ولكانت لها السيادة على البحار . قال الجنرال ماهان : « ان قرار لويس ، ذلك القرار الذى أودى بحياة كولبير وقضي على رخاء فرنسا وازدهارها ، أحس الناس به جيلا بعد جيل من خلال نتائجه (٨) .

ومات بوينبرج قبل أن يصله « المشروع » . وحزن ليبنتز لفقدان صديق يؤثر المصلحة العامة ، غير انانى . ولهذا السبب ، من ناحية ، لم يعد الى مينز . أضف الى ذلك أن التيارات الفكرية فى باريس أسرت لبه ، حيث وجدها أكثر اثارة من جاذبية تلك التى أحاطت حتى بالناخب المتحرر المستنير . وهناك التقى بأنطون أرنولد أوف بورث رويال ، ومالبرانش ، وكريستيان هوجنز ، وبوسويه . وجذبه هوجنز الى الرياضة العالية ، وبدأ ليبنتز « حساب اللامتناهيات فى الصغر » الذى أفضي به الى « التفاضل والتكامل » .

وفى يناير ١٦٧٣ عبر المانش الى انجلترا فى بعثة أوفدها ناخب مينز الى شارل الثانى . وفى لندن تعرف على أولدنبرج وبويل ، وأحس بفتنة العلم المستيقظ . ولما عاد الى باريس فى مارس خصص جزءا أكبر فاكبر من وقته للرياضيات . واخترع آلة حاسبة أدخلت بعض التحسينات على آلة بسكال ، اذ زاد بها على الجمع والطرح ، عمليات الضرب والقسمة . وفى أبريل انتخب ، غيابيا ، عضوا فى الجمعية الملكية . وما وافت سنة ١٦٧٥ حتى كان قد اكتشف حساب التفاضل ، وسنة ١٦٧٦ حساب المتناهيات فى الصغر ، كما كان قد بلور طريقته الناجحة فى استخدام الرموز . ولم يعد أحد يتهم ليبنتز بأنه انتحل لنفسه وضع « حساب اللامتناهيات فى الصغر » بدلا من نيوتن (٩) . والظاهر أن نيوتن أجرى اكتشافه ١٦٦٦ ، ولكن لم ينشره الا فى ١٦٩٢ . ونشر ليبنتز « حساب التفاضل » فى ١٦٨٤ ، و « التكامل » فى ١٦٨٦ (١٠) وليس ثمة شك فى أن نيوتن كان أول من اكتشف ، وأن ليبنتز توصل الى اكتشافه مستقلا عنه ، وأنه سبق نيوتن الى نشر الاكتشاف وأن طريقة ليبنتز فى « الرموز » ثبت أنها أفضل من طريقة نيوتن (١١) .

وقضي أسقف مينز نحبه فى مارس ١٦٧٣ تاركا ليبنتز بلا وظيفة رسمية ، وسرعان ما وقع اتفاقا للالتحاق بخدمة دوق رومه جون فردريك

أوف برونزويك ـ لونبرج ، أمينا لمكتبته فى هانوفر . وظل مفتـونا بباريس ، فبقى بها حتى ١٦٧٦ ، ثم ارتحل على مهل الى هانوفر عبر لندن ، وامستردام ولاهاى . وفى امستردام تحدث مع تلاميذ سبينوزا ؛ وفى لاهاى التقى بالفيلسوف نفسه . وتردد سبينوزا فى أن يوليه ثقته ، لأن ليبنتز عرض التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، مما قد يساعد على خنق حرية الفكر (١٢) . وتغلب ليبنتز على هذه الشبهات ، وسمح له سبينوزا بقراءة ـ بل بنسخ بعض أجـزاء من مخطـوطة « كتـاب الأخلاق » (١٣) ـ وجرت بين الرجلين أحاديث طويلة . وبعـد وفـاة سبينوزا لقى لبينتز مشقة كبيرة فى اخفـاء تأثيره العميـق بالقديس اليهودى .

ووصل الى هانوفر فى أواخر ١٦٧٦ ، وبقى فى خدمة أمراء برنزويك المتعاقبين طوال الأربعين عاما الباقية من عمره . وكان يأمل فى تعيينه مستشارا للدولة ، ولكن الأدواق خصصوه لتولى شئون مكتباتهم وكتابة تاريخ أسرتهم . ونهض بهذه المهام بشكل متقطع على خير وجه . وزين التاريخ الضخم الذى كتبه فى عدة مجلدات ، وملأه بوثائق أصيلة بذل جهدا كبيرا فى الحصول عليها . وأثبتت أبحاثه المتعلقة بسلسة الأنساب فى ايطاليا ، الأصل المشترك لأسرتى است وبرونزويك . وعلى الرغم من موضوع هذا الكتاب كان مقيدا بشكل مزعج لهذه العبقرية الطموحة ؛ فقد امتد به الأجل ليرى بيت برونزويك يرث انجلترا . وحاول جاهـدا أن يكون وطنيا محبا لألمانيا . وكم ناشد الألمان أن يستخدموا لغتهـم الوطنية فى القانون ، ولكنه كتب رسائله وأبحاثه باللاتينية أو الفرنسية وكان نموذجا لامعا « للأوربى الصالح » و « الذهن العالمى » . وحـذر الأمراء لألمان من أن الأحقاد التى تمزقهم ، وتعمدهم اضعاف سلطان الامبراطورية ، كل أولئك حكم علىالمانيا بأن تكون فريسة الدول الأكثر تماسكا ومركزية . وميدانا للحروب التى يتكرر نشوبها بين فرنسـا وانجلترا وأسبانيا (١٤) .

وكان أمله الذى يطويه بين جوانحـه ، أن يخـدم الامبراطور والامبراطورية ، لا أمراء الولايات المشـتتة . وكان لديه مائة مشروع للاصلاح السياسي والاقتصادى والدينى والتعليمى . واتفق مع فولتير فى أنه من الايسر اصلاح الدولة بهداية حاكمها ، منه بتعليم الجماهير فى

بطء ، وهم مرهقون بالتماس أسباب العيش فلا يجدون فسحة من الوقت للتفكير (١٥) . وعندما مات أمين المكتبة الامبراطورية فى ١٦٨٠ ، تقدم ليبنتز لشغل المنصب ، ولكنه أضاف بأنه لا يريد أن يشغله الا اذا عين معه عضوا فى المجلس الامبراطورى الخاص . ورفض طلبه ، عاد الى هانوفر حيث وجد بعض السلوى والعزاء فى صداقة الناخبة صوفيا ، وبعد ذلك فى صداقة ابنتها صوفيا شارلوت التى ألحقته بالبلاط البروسي ، وساعدته فى تأسيس أكاديمية برلين (١٧٠٠) ، وأوحت اليه بكتابة « التيوديسية » ، وكرم فى بقية أيام حياته ، مركزه المتواضع بتبادل الرسائل مع زعماء الفكر فى أوربا ، وباسهاماته الضخمة فى الفلسفة ، وتقديمه خطة جريئة لاعادة التوحيد الدينى للعالم المسيحى .

٣ ـ ليبنتز والمسيحية :

هل كان ليبنتز نفسه مسيحيا ؟ الجواب الايجاب « ظاهريا » بطبيعة الحال ، فان رجلا بمثل حماسته وتلهفه على العبور من الفلسفة الى فن الحكم وسياسة الدولة كان لزاما عليه أن يلبس لاهوت الزمان والمكان اللذين عاش فيهما . وقال فى مقدمة « التيوديسية » : « لقد حاولت فى كل الاشياء لأدرس الحاجة الى التنوير والتهذيب (١٦) » . وكانت كل الكتابات التى نشرها فى حياته أمثلة تحتذى فى اخلاصها للعقيدة فقد دافعت عن التثليث والمعجزات والنعمة الالهية ، والارادة الحرة ، والخلود ، كما هاجمت مفكرى العصر الأحرار لانتقاصهم من قيمة الأسس الأخلاقية للنظام الاجتماعى على أنه « ذهب الى الكنيسة قليلا ، ... ولم يتناول القربان المقدس لسنوات كثيرة (١٧) » . ولقبه البسطاء من الناس فى هانوفر « لوفينكس الذى لا يؤمن بشيء (١٨) » . ونسب اليه بعض الطلبة فلسفتين متعارضتين ، واحدة للاستهلاك العام وتسلية الأميرات ، والأخرى « توكيد واضح المعالم لكل مبادىء سبينوزا (١٩) . « أن ليبنتز كان يلجأ الى سبينوزا كلما سمح لنفسه أن يكون منطقيا . وفى كتبه المنشورة حرص ، تبعا لذلك ، على أن يكون غير منطقى (٢٠) » .

ان مساعيه للتوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية جعلته عرضة للاتهام بعدم التفريق بين الأديان أو الايمان بأنها جميعا متساوية فى

صحتها (٢١) • ان رغبته الملحة فى الوحدة والتوفيق سيطرت على لاهوته • وعلى حين تجنب الوعاظ حاول جاهدا أن يؤلف بينهم • انه قلل من شأن الفروق السطحية لأن نظرته كانت عميقة• ولو كانت المسيحية شكلا من أشكال الحكومة ، فان تنوعاتها المذهبية لم تبد له أدوات للتقوى والغيرة والحماسة ، بل عقبات فى طريق النظام والسلام •

وفى ١٦٧٧ أرسل الامبراطور ليوبولد الأول كريستوفر روجا دى سبينولا أسقف شرف تينا فى كرواتيا ، الى بلاط هانوفر ليقترح على الدوق جون فردريك ، وكان مرتدا الى الكاثوليكية أن ينضم الى حملة لاعادة توحيد البروتستانت مع رومه • وربما كان لهذه الخطة ذيول سياسية : فان الناخب رغب اذ ذاك فى دعم الامبراطور له ، كما أن ليوبولد راوده الأمل فى وحدة وروح المانيتين أقوى لمواجهة الأتراك • وتنقل سبينولا لفترة من الوقت بين فيينا وهانوفر ، وأحرز المشروع تقدما • وعندما وضع بوسويه فى ١٦٨٢ « الاعلان الفاليكانى » (الفاليكانية حركة نشأت فى فرنسا تنادى بالاستقلال الادارى للكنائس فى البلدان الكاثوليكية عن سيطرة البابا) • الذى تحدى فيه رجال الدين الفرنسيون البابا ، ربما راود لبينتز بعض الأمل فى انضمام فرنسا الى المانيا كتلة مستقلة عن البابوية الى حد يخفف من عداء البروتستانتية للمذهب العتيق وفى ١٦٨٣ ، عندما كان الاتراك يتقدمون لحصار فيينا ، عقد سبينولا فى هانوفر مؤتمرا يضم رجال اللاهوت البروتستانت والكاثوليك ، وقدم اليهم « قواعد التوحيد الكنسي لكل المسيحيين » •

وربما كان من أجل هذا الاجتماع (٢٢) أن ليبنتز كتب ، غفلا من اسمه أغرب الوثائق العديدة التى وجدت بين أوراقه بعد وفاته ، وكان عنوانها « منهج لاهوتى » ، وفهمت على أنها بيان للمذهب الكاثوليكى يمكن أن يتقبله أى بروتستانتى حسن النية • وفى ١٨١٩ نشرها ناشر كاثوليكى دليلا على أن لبينتز كان قد ارتد سرا ، والأرجح أنها كانت محاولة دبلوماسية لتضييق هوة الخلاف الدينى بين الفريقين • ولكن كان للناشر عذره فى اعتبار الوثيقة كاثوليكية الى أبعد حد ، واتسم مطلعها بالتجرد أو عدم التحيز لأى من المذهبين فى ايجاز :

بعد التماس العون من الله ، بالابتهالات والصلوات الطويلة الخاشعة ، طارحا جانبا ، قدر ما يطيق الإنسان ، كل روح حزبية ؟ ناظراً الى الخلافات الدينية نظرة رجل قدم من كوكب آخر ، تلميذا مبتدئا متواضعا ، لا يدرى شيئا عن أى من الفرق المختلفة ، غير مقيد بأية التزامات ، انتهيت بعد دراسة وافية الى النتائج التى أدونها هنا . لقد قدرت انه لزام على أن أعتنقها جميعا لأن الكتاب المقدس والتقليد الدينى العريق ، وما يفرضه العقل ، والشواهد الأكيدة للحقائق ، يبدو لى أنها جميعا تتضافر فى اقرارها فى ذهن أى انسان غير متحيز (٢٣) .

وتلا ذلك اعتراف بالايمان بالله ، وبالخلق والخطيئة الأصلية ، والمطهر ، وتحول الخبز والنبيذ الى جسد المسيح ودمه ، ونذور الأديار والتشفع بالقديسين واستخدام البخور والصور الدينية والأردية الكهنوتية واخضاع الدولة للكنيسة (٢٤) . وربما ألقى كرم الكاثوليكية ظلالا من الشك فى الوثيقة ، ولكن صحة صدورها من ليبنتز أمر مقبول اليوم بصفة عامة (٢٥) ، وربما جاش صدره بالأمل فى الحصول على وظيفة ملائمة فى بلاط الامبراطور الكاثوليكى فى فيينا بتأييده لوجهة النظر الكاثوليكية على هذا النحو . وأعجب ليبنتز ، مثل أى متشكك فاضل ، بمنظر الطقوس الكاثوليكية وأنغامها وعبيقها .

وهكذا فان ألحان الموسيقى ، وتناغم الأصوات العذب ، وشعر الترانيم وجمال الطقوس الدينية وتلألأ الأضواء ، وعبق العطور ، والملابس الفاخرة ، والأوانى المقدسة المزدانة بالأحجار الكريمة ، والهدايا الثمينة ، والتماثيل واللوحات التى توقظ الشعور الدينى ، والنتاج المبدع للعبقرية الفنية ، .. .. وجلال المواكب العامة وروعتها ، والستائر والأغطية الثمينة التى تزين الطرقات ، وموسيقى النواقيس ، وصفوة القول كل الهدايا والهبات وعلائم التكريم والاجلال التى يغدقها الناس فى سخاء بحكم غرائز التقوى فيهم ، كل أولئك ، فيما أحسب ، لا تثير فى ذهن الله من الازدراء ما تريدنا البساطة الصارخة عند بعض

المعاصرين أن نعتقد أنها مثيرة له . وهذا فى كل الأحوال ما يؤكده العقل والتجربة على السواء (٢٦) .

وأخفقت كل هذه الحجج فى أن تحرك مشاعر البروتستانت . وأفسد لويس الرابع عشر الخطة ومزق معالم الزينة بالغاء مرسوم نانت ، وشن حرب وحشية على البروتستانت فى فرنسا ، ووضع ليبنتز مشروعه جانبا انتظارا لفرصة ملائمة .

وفى ١٦٨٧ قام ليبنتز بثلاث جولات فى ربوع ألمانيا والنمسا وايطاليا ، ليبحث فى السجلات والمحفوظات المتناثرة هنا وهناك عن حوليات أسرة برنزويك . وفى رومه ، وعلى افتراض أنه قد يقبل الارتداد الى الكاثوليكية ، عرضت عليه السلطات هناك أن يكون أمينا لمكتبة الفاتيكان ، ولكنه رفض هذا المنصب . وقام بمسعى جرىء بغية الغاء المراسيم الكنسية التى صدرت عند كوبرنيكس وجاليليو (٢٧) . وبعد رجوعه الى هانوفر ، بدأ فى ١٦٩١ ثلاث سنين من المراسلات مع بوسويه أملا فى احياء حركة توحيد العالم المسيحى من جديد . هل يمكن أن توجه الكنيسة الكاثوليكية الدعوة لعقد مجلس عالمى بالمعنى الصحيح يشهده زعماء البروتستانت والكاثوليك ليعيدوا النظر فى القرار الذى اتخذه مجلس ترنت ودمغ فيه البروتستانت بالهرطقة ويلغيه ؟ . ان الأسقف الذى كان لفوره قذف هؤلاء « المهرطقين » بمقاله « خلافات الكنائس البروتستانتية » (١٦٨٨) ، رد ردا لا يبشر بالوصول الى تسوية : اذا رغب البروتستانت فى العودة الى حظيرة الكنيسة المقدسة ، فان عليهم أن يرتدوا الى الكثلكة ويضعوا حدا للحوار . وتوسل اليه ليبنتز أن يعيد النظر فى موقعه . وساند بوسويه هذا الأمل وقال : انى انضم الى المشروع ... ستسمع عما قريب ما يجول بخاطرى (٢٨) . وفى ١٦٩١ كتب ليبنتز الى مدام برينون فى تفاؤله المعهود :

> ان الامبراطور يقف موقفا وديا . كما أن البابا أنوسنت الحادى عشر ونفرا من الكاردينالات والقواد ، وطوائف الرهبان وكثيرا من رجال الدين الموقورين الذين درسوا الموضوع بعناية ، قد أدلوا بآرائهم بطريقة مشجعة غاية التشجيع .. وليس من المبالغة فى شيء أن أقول بأنه لو أن ملك

فرنسا والقساوسة الذين يستمع اليهم الملك فى هذا الشأن ، اتخذوا اجراء مناسبا متفقا عليه ، فان الأمر لن يكون مجرد احتمال ، بل يكون فى حكم المنتهى (٢٩) ٠

ولما وصل رد بوسويه كان مخيبا لكل رجاء : ليس من سبيل للرجوع عن قرارات مجلس ترنت ، انها كانت على صواب فى دفع البروتستانت بالهرطقة ، والكنيسة معصومة من الخطأ ، ولن يصل أى مؤتمر يضم زعماء الكاثوليك والبروتستانت الى نتائج بناءة ما لم يوافق البروتستانت سلفا على قبول قرارات الكنيسة فى المسائل التى هى موضوع النزاع (٣٠) ٠ وأجاب ليبنتز بأن الكنيسة كثيرا ما غيرت آراءها وتعاليمها ، وناقضت نفسها ، وأدانت أناسا وحرمتهم دون سبب عادل ٠ وأعلن « أنه نفض يده من أية مسئولية عن أية مصاعب أو اضطرابات قد يسببها فى المستقبل الشقاق القائم فى الكنيسة المسيحية (٣١) » ٠ وولى شطره نحو المهمة التى بدت أكثر أملا ، وهى التوفيق بين جناحى البروتسانتية ، وهما اللوثرية والكلفنية ، ولكنه واجه فى هذا السبيل عناء وتصلبا أشد وأقسي من عناد بوسويه وتصلبه، وأخيرا ، تمنى ، بينه وبين نفسه أن يحل الطاعون بكل المذاهب المتنافسة ، وصرح بأنه ليس ثمة كتب ذات قيمة الا نوعان منها : تلك التى تتناول الظواهر والتجارب العلمية ، ثم التى تتناول التاريخ والسياسية والجغرافيا (٣٢) ٠ وظل ، ظاهريا وبشكل غامض لوثريا حتى انتهى أجله ٠

٤ – نظرة عامة فى فلسفة لوك

كان نصف نتاج ليبنتز « أبحاث وتعليقات » قام به عرضا تقريبا لدراسة أفكار بعض الكتاب ٠ وأعظم كتبه الذى بلغ ٥٩٠ صفحة بدأ فى ١٦٩٦ بعرض فى سبع صفحات لمقال لوك عن العقل الانسانى (١٦٩٠) الذى لم يعرفه ليبنتز آنذاك الا عن طريق خلاصة له أعدها لكلرك فى « المكتبة العالمية » وعندما ظهرت ترجمة فرنسية لهذا المقال (١٧٠٠) كتب ليبنتز منجديد نقدا له لمجلة المانية ٠ وبادر فاعرب عن اهمية تحليل لوك وأطنب فى امتداح أسلوبه ٠ وفى ١٧٠٣ عقد العزم على التعليق عليه فصلا فصلا ٠ وهذه التعليقات هى التى يتالف منها كتاب

ليبنتز « أبحاث جديدة فى العقل الانسانى » . واذ علم بوفـــاة لوك ١٧٠٤ لم يتم التعليق ، ولم ينشر الا فى ١٧٦٥ ، فتاخر ظهوره ، فلم يكن له دخل فى تأثير لوك العميق على فولتير وغيره من النجوم اللامعة فى عصر الاستنارة فى فرنسا ، ولكنه جاء فى الوقت المناسب ليسـهم فى تشكيل الفتح الجديد فى كتاب كانت « نقد العقل الخالص » . وهو من أهم مؤلفات فى تاريخ علم النفس .

انه من حيث الشكل حـــوار بين « فيلاليثس Philalethes (حبيب الحق) الذى يمثل لوك ، « وثيوفيلوس Theophilus (حبيب الله) الذى يمثل ليبنتز . والحوار رصين مفعم بالحيوية ، ولا يزال تطيب قراءته لكل من أوتى ذهنا حادا وفراغا بغير حدود . وتظهر المقدمة ليبنتز فى أعظم حالاته النفســـية دماثة وكياســـة ، مصرحا فى تواضع بأنه يكسب قراءً بالتزامه البحث فى « مقال فى العقل الانسانى» الذى كتبه رجل انجليزى لامع ، وهو من أجمل المؤلفات التى حظيت بأعظم التقدير فى هذه الفترة . والمسالة المطروحة للبحث ، مبسوطة بوضوحجدير بالثناء: نريد أن نعرف هل النفسفى حد ذاتها خالية تماما، مثل الألواح التى لم يكتب عليها شيء بعد ، طبقا لما يقول به أرســطو وكاتب المقال ، وهل كل ما يمكن تتبعه بعد ذلك ، ياتى فقط من الحواس والخبرة ، أو هل تحتوى النفس اساسا على أصـــول كثير من الأفكار والمبادىء التى توقظها الأشياء الخارجية مجرد ايقاظ فى المناسبات ، كما اعتقد أنا ويعتقد أفلاطون + (٣٣) . ومن رأى ليبنتز أن الذهن ليس وعاء سلبيا للخبرة ، بل هو عضو مركب يحول بمقتضي تركيبه ووظائفه معطيات الاحساس ، مثلما أن الجهاز الهضمى ليس مجرد كيس فارغ ، بل جهـــاز أعضاء لهضم الطعام وتحويله الى متطلبات الجسم وأعضائه . وفى عبارة شهيرة معبرة بارعة لخص ليبنتز كلام لوك ونقحه ، ليس فى الذهن شيء لم يكن فى الحواس الا الذهن نفسه (٣٦) » . ان لوك ، كما لحظ ليبنتز ، كان قد اعترف بأن الأفكار قد تأتى من « التفكير » الاستبطانى ، مثلما قد تاتى من الاحساس الخارجى ، ولكنه كان قد نسب الى أصل حسي كل

+ كتب لوك ان الذهن عند الولادة عبارة عن « ورقة بيضاء خالية » (٣٤) . ولكنه لم يستخدم عبارة « لوح نظيف » . وهى ترجمة توما الأكوينى لقطعة من أرسطو فى موضوع « النفس » (٣٥) .

العناصر الداخلة فى التفكير • وعلى النقيض من ذلك ، جادل ليبنتز فى أن الذهن من نفسه يمد بأصول أو الوان معينة من الفكر ، مثل « الوجود ، الجوهر ، الوحدة ، الهوية ، العلة ، الادراك الحسي ، العقل ، وانطباعات كثيرة أخرى لا يمكن أن تعطيها الحواس (٣٧) » ، وأن أدوات العقل هذه ، أو أعضاء الهضم العقلى « فطرية » ، لا بمعنى أننا على وعى بها عند الولادة ، أو اننا دائما على وعى بها عند استخدامها ، بل بمعنى أنها جزء من التركيب أو الكيان الأصلى ، أو « الاستعدادات الطبيعية » للذهن • وأحس لوك بأن هذه الأصول المفترض انها فطرية تجرى تنميتها وتطويرها تدريجا بتفاعل الأفكار الحسية أصلا ، فى الفكر ، ولكن بدون مثل هذه الأصول ، كما قال ليبنتز منازعا ، لن يكون هناك أفكار ، بل مجرد تعاقبات مهوشة من الأحاسيس ، تماما مثلما أنه بدون عمل المعدة وعصاراتها الهضمية لا يغذينا الطعام ، ولن يكون طعاما • وعند هذا الحد أضاف فى جرأة : ان كل الأفكار فطرية ـ أى أثر عملية التحويل فى الذهن على الأحاسيس • ولكنه سلم بأن الأصول الفطرية عند الولادة مهوشة وغير متميزة ، ولا تصبح واضحة الا عن طريق الخبرة والاستخدام •

والأصول الفطرية ، فى رأى ليبنتز ، تشمل كل « الحقائق الضرورية ، مثل تلك الموجودة فى الرياضة البحتة (٣٨) ، لأن الذهن ، لا الاحساس ، هو الذى يزود بأصل الحاجة والضرورة ، وكل شيء حسي هو فردى طارىء أو احتمالى ، ويمدنا ، على أحسن الفروض ، بتعاقب متكرر ، لا بتعاقب ضرورى أو علة ضرورية (٣٩) • (وكان لوك قد سلم بهذا (٤٠)) • واعتبر ليبنتز أن كل غرائزنا وايثارنا اللذة على الألم وكل قوانين العقل ، فطرية (٤١) ـ ولو أنها جميعا لا تصبح واضحة الا بالخبرة ، ومن بين قوانين الفكر الفطرية هناك قانونان أساسيان بصفة خاصة : مبدأ التناقض ـ فالبيانات المتناقضة لا يمكن أن تكون صحيحة فى وقت واحد • « اذا كانت أ دائرة ، فهى ليست مربعا » ، ومبدأ السبب الكافى ـ « لا يحدث شيء دون سبب لحدوثه على النحو الذى حدث عليه » لا على نحو آخر (٤٢) « وذهب ليبنتز الى أن الذكاء البشرى يختلف عما لدى الحيوان من معرفة ، فى أنه يستنتج أفكارا عامة من خبرات معينة ، عن طريق استخدام أصول العقل الفطرية ، أما الحيوانات فهى تعتمد كل الاعتماد على الخبرة العملية ،

توجه نفسها عن طريق الأمثلة فحسب » ،فهى ، بقدر ما نستطيع الحكم عليها ، لا يمكن أن تصل أبدا الى تشكيل القضايا أو الافتراضات الضرورية (٤٣) ·

ان مبدأ « السبب الكافى » يكفى « لاقامة الدليل على وجود الله وكل أجزاء الميتافيزيقا الاخرى أو اللاهوت الطبيعى (٤٤) » · وبهذا المعنى تكون فكرتنا عن الله فطرية ، ولو أن الفكرة فى بعض الأذهان أو عند بعض القبائل لا واعية أو مهوشة ، ويمكن أن نقول مثل هذا على فكرة الخلود (٤٥) ـ والاحساس الخلقى فطرى ، لا فى مضمونه النوعى أو الخاص ، أو فى أحكامه التى قد تختلف من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان ، بل بوصفه وعيا للفرق بين الصواب والخطأ · وهذا الوعى عام شامل (٤٦) ·

والذهن ، فى علم النفس عند ليبنتز ، فعال نشيط ، لا لمجرد أنه يدخل بمقتضي تركيبه وعمله فى تكوين كل فكرة فحسب ، بل كذلك فى استمرار نشاطه دون انقطاع · وحيث أن ليبنتز استخدم لفظة «يفكر» بمعناها الواسع عند ديكارت ، بمعنى أنها تشمل كل العمليات العقلية ، فانه اتفق مع الديكارتيين فى أن الذهن يفكر دائما · سواء أكان مستيقظا أم غير واع أو نائما · « أن أية حالة بلا تفكير فى النفس ولا راحة مطلقة فى الجسم ، تبدو لى مناقضة للطبيعة ، ولا مثيل لها فى الدنيا ، بقدر سواء (٤٧) » · وبعض العمليات العقلية تتم فيما وراء نطاق العقل (فى العقل الباطن) « من الخطأ البين الاعتقاد بأنه ليس فى النفس مدركات الى جانب تلك المدركات الحسية التى تعيها (٤٨) » · وبمثل هذه القضايا التى أوردها ليبنتز ، بدأ علم النفس الحديث جهوده فى التنقيب عما أسماه بعض الباحثين الذهن اللا واعى ، وما اعتبرته الأرواح القوية متعلقا بالمخ ، أو عمليات أخرى جسدية لم تثر الوعى ·

ولدى ليبنتز الشي الكثير مما يمكن أن يقول عن العلاقة بين الجسم والنفس ، ولكنه هناك يترك علم النفس ، ويحلق فى الميتافيزيقا ، ويطلب الينا أن ننظر الى العالم بأسره على أنه مونادات نفسية بدنية ، ذوات صفات عقلية وبدنية معا ·

٥ ـ المونـادات

التقى ليبنتز عندما كان فى فيينا فى ١٧١٤ بالأمير يوجين من سافوى ، الذى كان هو ومالبورو قد أنقذا أوربا من ربقة الخضوع للملك لويس الرابع عشر ، وطلب الأمير الى الفيلسوف أن يعد له بيانا موجزا عن فلسفته بشكل يتيسر معه على القائد العسكرى قراءته . واستجاب ليبنتز لهذا الطلب باعداد رسالة محكمة موجزة من تسعين فقرة ، تركها بين أوراقه عند مماته . ونشرت لها ترجمة ألمانية فى ١٧٢٠ . ولم يطبع النص الأصلى الفرنسي الا فى ١٨٣٩ ، والمحرر هو الذى أسماه « المونادولوجيا » (علم الجواهر الروحية) وربما أخذ ليبنتز اصطلاح موناد عن جيوردانو برونو (٤٩) ، أو عن فرانس فان هلمونت (ابن الكيميائى ج ، ب)(٥٠) ، الذى استخدم اللفظة لوصف « البذور » الدقيقة جدا ، التى خلقها الله هى وحدها مباشرة ، والتى تطورت الى كل أشكال المادة والحياة . وكان أحد الأطباء الانجليز ، فرانسيس جليسون قد نسب ، لا القوة وحدها ، بل كذلك الغريزة والأفكار الى كل الجواهر (١٦٧٢) . وكانت نظرية شبيهة بهذه قد نبتت فى ذهن ليبنتز المتفتح الدؤوب منذ ١٦٨٦ . وربما تأثر بعمل الميكروسكوبيين الحديثين الذين عرضوا الحياة النابضة فى أصغر الخلايا . وخلص ليبنتز الى أن « هناك عالما من الكائنات المخلوقة ـ الأشياء الحية ، والحيوانات .. .. والأنفس .. .. ، فى أصغر جزء من المادة ـ (١٥١) » . وكل جزء من المادة يمكن تصوره على أنه بركة مملوءة بالسمك ، وأن أية نقطة من دم فى أى من هذه الأسماك الميكروسكوبية ، انما هى بركة أخرى مملوءة بالسمك ، وهكذا الى ما لا نهاية ـ لقد هزت مشاعره ـ كما كانت قد روعت بسكال ـ قابلية القسمة اللامتناهية لأى شيء ممتد .

وأوحى ليبنتز بأن قابلية القسمة التى لا نهاية لها ، لغز ناشيء عن مفهومنا للحقيقة بأنها مادة ، ومن ثم فهى ممتدة وقابلة للقسمة الى حد الغثيان . اننا اذا اعتبرنا الحقيقة النهائية طاقة وتصورنا العالم مكونا من مراكز قوة ، لاختفى سر أو لغز قابلية القسمة ، لأن القوة مثل الفكر لا تنطوى ضمنا على امتداد . وعلى هذا رفض ذرات ديكارت على أنها المكونات النهائية للكون ، وأحل محلها المونادات ، وهى وحدات غير

ممتدة من القوة . وعرف الجوهر ، لا بانه مادة ، بل طاقة . (الى هذه النقطة كان مفهوم ليبنتز متفقا تمام الاتفاق مع فيزياء القرن العشرين) ، « المادة » أينما وجدت مشحونة بالحركة والنشاط والحياة . وكل موناد يحس ويدرك ، أن له ذهنا أوليا أو بدائيا ، بمعنى أنه حساس — ويستجيب — للتغيرات الخارجية .

وقد نفهم المونادت فهما أفضل اذا فكرنا فيها « بطريقة تشبه الانطباعة التى لدينا عن الأنفس (٥٢) » وكما أن كل نفس « عبارة عن شخص بسيط مستقل (٥٣) » ، ذات منعزلة تشق طريقها مناضلة بارادتها الباطنية ضد كل ما هو خارج عنها ، فان كل موناد كذلك وحيد ، مركز قوة منفصل مستقل ضد كل مراكز القوة الأخرى . والحقيقة كون من القوى الفردية ، موحد ومنسجم بفضل قوانين الكل أو المجتمع أو الله فقط . وكما أن كل نفس تختلف عن سائر الأنفس ، فان كل موناد كذلك فريد . وليس فى الكون بأسره كائنان متشابهان كل الشبه ، لأن الفروق بينهما تشكل فرديتهما ، ان شيئين لهما نفس الصفات ، لابد أن يكونا واحدا متطابقا يتعذر تمييزه (« قانون الأشياء التى يتعذر تمييزها ») (٥٤) وكما أن كل نفس تحس أو تدرك الحقيقة المحيطة بها ، ويقل هذا وذاك وضوحا كلما كانت الحقيقة بعيدة عنها ، ولكنها تشعر بالحقيقة بدرجة ما ، فان كل موناد يشعر بالكون كله ، مهما كان الشعور مهوشا أو غير واع . وهو بهذه الطريقة مرآة تعكس وتمثل العالم بدرجة أو بأخرى من الغموض . وكما أن أى ذهن فردى لا يستطيع بحق أن ينعم النظر فى ذهن آخر ، فكذلك لا يستطيع موناد واحد أن ينعم النظر فى موناد آخر . فليس فيه أية نافذة أو فتحة لمثل هذا الاتصال المباشر ، ومن ثم فانه لا يستطيع مباشرة احداث أى تغيير فى أى موناد آخر .

والمونادات تتغير لأن التغيير أساسي لحياتها — ولكن التغييرات تاتى من كفاحها الداخلى (٥٥) . فكما أن كل نفس هى رغبة وارادة ، فكذلك كل موناد يحتوى على — أو هو — غرض داخلى وارادة ، سعى للنمو والتطور . وتلك هى « الفعلية » التى قال عنها أرسطو بانها لب كل حياة . وبهذا المعنى (كما كان يقول شوبنهور) فان القوة والارادة شكلان أو درجتان من نفس الحقيقة الأساسية (٥٦) . وفى الطبيعة غائية

متأصلة : فهناك فى كل شيء سعى أو « محاولة » أو « اشتهاء » ، أو غرض موجه يحدد قالبه ، حتى ولو كان ذاك الغرض أو تلك الارادة تعمل فى حدود القانون الآلى أو عن طريقه ٠ وكما أن الحركة الجسمية فينا هى تعبير مرئى ميكانيكى عن رغبة أو ارادة باطنة ، فكذلك فى المونادات ، فان العملية الميكانيكية التى نراها من الخارج ، هى مجرد الشكل أو الهيكل لقوة داخلية : « وهذا الذى يظهـر بشـكل آلى أو بالامتداد ، فى المادة يتركز بشكل دينامى أو فعال ، وبشكل عضوى (أو مونادى) فى « الفعلية » (أو السعى الداخلى) نفسها (٥٧) ٠ ونحن فى ادراكنا المشوش المضطرب نعادل الاشياء الخارجة « بالمادة » لاننا نرى آليتها الخارجية فقط ، ولا نرى ـ كما هو الحال فى الاستبطان ، الحيوية الداخلية ذات الأثر الفعال فى التكوين ٠ وفى هذه الفلسفة تفسح الذرات العاجزة غير الفعـالة عنـد المـاديين ، مكانا للمونادات أو الوحدات التى هى مراكز حية للفردية والقوة ٠ ولا يعود العالم آلة ميتة ويصبح مسرحا لحياة نابضة متنوعة ٠

وأهم المعالم فى هذا التنوع هى درجـة الوعى فى « ذهـن » الموناد ٠ فان لكل المونادات أذهانا ، بمعنى الحساسية والاستجابة ، ولكن ليس كل ذهن واعيا ٠ وحتى نحس الكائنات البشرية العجيبـة ، نمر بعمليات عقلية كثيرة دون وعى ، كما هو الحال فى الأحلام ، أو حين نكون مستغرقين فى أشد الانتباه الى جوانب معينة من موقف ما ، فاننا لا نعى أننا ندرك عناصر أخرى كثيرة فى هذا المشهد ـ وهى عناصر قد تكون على أية حال مختزنة فى الذاكرة ، وقد تدخل الى أحلامنا ، وقد تنبثق من زوايا خفية فى الذهن الى الوعى الذى يحدث فيما بعد ، أو حـين نكون على وعى بزئير الأمواج المنكسرة على الشـاطىء أو هسيسها ، فاننا لا نتحقق من أن كل موجة ، أو كل جزء صغير من كل موجة ، يطرق أذننا ليحدث ألفا من الآثار الفردية ، التى تشـكل أو تصبح هى سماعنا للبحر ٠ وعلى ذلك فان أبسط المونادات تحس وتدرك كل شيء حولها ، ولكن بشكل مهوش مضطرب الى حـد اللا وعى ٠ والمشاعر فى النبات تصبح أوضح وأكثر تخصصا وتؤدى الى استجابات أكثر تحديدا ٠ وفى الموناد ، أى نفس الحيوان تصبح المدركات المرددة للصدى ذكريات يولد تفاعلها وعيا ٠ والانسان عبارة عن مستعمرة من المونادات (الخلايا ؟) لكل منها جوعه وحاجياته وأغراضه ، ولكن هذه

الجزيئات تصبح جماعة موحدة من كائنات حية بتوجيه من موناد مسيطر ، وهو « فعلية » الانسان ونفسه (٥٨) • واذا ارتفعت هذه النفس الى مستوى العقل فانها •• •• تعتبر ذهنا (٥٩) وتسمو فى المرتبة تبعا لدرجة ادراكها للعلاقات الضرورية والحقائق الباطنية ، وعندما تدرك نظام الكون وذهنه تصبح مرآة الله • والله ، الموناد الرئيسي ، ذهن خالص واع تمام الوعى ، مجرد من كل آلية وجسم (٦٠)

واشق جانب فى هذه الفلسفة هو نظرية ليبنتز فى « التناسق الأزلى » • ما هى العلاقة بين حياة الموناد الداخلية ، ومظهره الخارجى أو هيكله المادى ؟ وكيف نفسر التفاعل فى الجسم المادى والذهن الروحى فى الانسان ؟ وكان ديكارت قد نسب هذه المسألة عجزا الى الغدة الصنوبرية • ورد عليها سبينوزا بانكار أى انفصال أو تفاعل بين المادة والذهن ، حيث كان هذان ، فى رأيه ، مجرد المظهرين الخارجى والداخلى لعملية وحقيقة واحدة • وجدد ليبنتز المشكلة بالقول بأن المظهرين منفصلان متميزان ، وأنكر تفاعلهما ، ولكنه نسب تزامن العمليات الجسمية والعقلية الى تواطؤ مستمر رتبه الله ترتيبا أزليا بشكل عجيب :

> ان النفس تتبع قوانينها الخاصة بها ، وكذلك الجسم يتبع قوانينه الخاصة به ، وهى تتلاءم وتتفق بفضل « التناسق الأزلى بين الجواهر ، حيث أنها كلها تمثل كونا واحدا (٦١) •• •• وتعمل الأجسام كما لو أنه ليس هناك نفوس ، وتعمل النفوس كما لو أنه ليس هناك أجسام ، ويعمل كلاهما كما لو أنه يؤثر فى الآخر •• •• (٦٢) ويسألوننى كيف يحدث أن الله غير راض عن انتاج كل أفكار وتكيفاتها بغير هذه الأجسام العديمة الفائدة التى لا تستطيع النفس (كما يقولون) أن تحركها أو تعرفها • والجواب سهل : ان ارادة الله هى التى اقتضت أن يكون هناك عدد أكبر ، لا عدد أقل ، من الجواهر ، كما وجد ، سبحانه ، أنه من الخير أن تقابل هذه التكيفات شيئا خارجيا (٦٣) •

وارتيابا فى أن الاستغلال اللطيف للاله بديلا عن الفكر قد لا يلقى

استحسانا عاما ، عمد ليبنتز الى زخرفته بفرضية جلينكس وساعاته : فالجسم والذهن يعمل كل منهما مستقلا عن الآخر ، ومع ذلك يعملان فى تناسق محير ، مثل ساعتين صنعتا وملئتا ثم بدأتا ، فى حذق وبراعة الى درجة أنهما تسجلان الثوانى وتدقان الساعات فى توافق تام ، دون تفاعل أو تأثير متبادل ، وهكذا العمليات الجسدية والنفسانية ، على الرغم من استقلالهما ، ودون أن تؤثر أحداهما فى الأخرى ، فانهما تتوافقان عن طريق « تناسق وجد منذ الأزل بوسيلة الهيه بارعة توقعية » (٦٤) .

ولنفترض أن الذى جال بخاطر ليبنتز ، ولكنه لم يهتم بذكره ، هو أن العمليات التى هى فى الظاهر منفصلة ولكنها متزامنة ، عمليات الآلية والحياة ، عمليات الفعل والفكر ، هى عملية واحدة بعينها ، نراها من الخارج مادة ومن الداخل ذهنا . ولو أنه ذكر هذا لكان تكرارا لسبينوزا ، ومشاركة فى مصيره .

٦ ـ هل كان الله عادلا ؟

ان هذه الحاجة الى ستر عرى الفلسفة بأغطية لاهوتية ، هى التى أدت بليبنتز الى تاليف الكتاب الذى أثار حنق فولتير وسخريته ، وكاد يضيع مفكرا عميقا حقا فى صورة الأستاذ بانجلوس الهزلية ، دفاعا عن أحسن العوالم الممكنة . ان العمل الفلسفى الكامل الوحيد الذى نشر فى حياة ليبنتز هو « مقال الثيوديسية عن طبيعة الله وحرية الانسان وأصل الشر » ، (١٧١٠) ـ وهو تقريبا سند مشجع مثل كتاب ديكارت « مبادىء الفلسفة الأولى ، التى توضح وجود الله وخلود النفس » (١٦٤١) . والثيودريسية معناها عدالة الله أو تبريره (أو الفلسفة الالهية) .

فلهذا الكتاب ، مثل سائر الكتب أصل عرضي . وفى مقال عن القديس جيروم ، فى « القاموس التاريخى النقدى » نجد بيل ، على حين يبدى اعجابه الشديد بليبنتز ، يعارض رأى الفيلسوف بأنه يمكن التوفيق بين العقل والدين ، أو بين حرية الانسان وقدرة الله ، أو بين الشر الدنيوى والطيبة والقوة الالهيتين . وخير لنا ـ كما يقول بيل ، أن نتخلى عن فكرة اثبات المذاهب الدينية ، فان هذا لا يعنى الا ابراز

المتاعب والصعوبات . وأجاب ليبنتز (١٦٩٨) فى مقال كتب لصحيفة جاك باسناج « تاريخ أعمال العلماء » . وأضاف بيل فى الطبعة الثانية لقاموسه الى المقال الذى كتبه عن القديس جيروم ملاحظة هامة يحيى فيها ليبنتز « ذلك الفيلسوف العظيم » ولكنه أشار الى غوامض أخرى ، وبخاصة فى نظرية التناسق الأزلى . وأرسل ليبنتز رده الى بيل مباشرة، مباشرة ، ولكنه لم يطبعه . وفى العام نفسه كتب ثانية الى عالم روتردام يمتدح « تأملاته الأخاذة » و « أبحاثه التى لا حد لها (٦٥) » . ولم يتسم الا القليل من فترات تاريخ الفلسفة بمثل ما اتسمت به من الرقة واللطف تلك المجاملة المتبادلة بين بيل وليبنتز فى تبادل الأفكار . وأبدت صوفيا شارلوت رغبتها فى الاطلاع على جواب ليبنتز على شكوك بيل . وكان بالفعل يعد مثل هذا البيان حين ترامت اليه الأنباء بوفاة بيل . وراجع ردوده وتوسع فيها ونشرها تحت عنوان « التيوديسية » . وكان آنذاك فى الرابعة بعد الستين من العمر ، وأحس بدنو الأجل ، وربما هفت نفسه الى الايمان بعدالة الله مع الانسان . كيف يتأتى أن يتلوث عالم خلقه الله العلى القدير الخير بمثل هذه المذابح العسكرية والفساد السياسي والقساوة البشرية والشقاء والزلازل والمجاعات والفقر والمرض ؟

ان « الرسالة التمهيدية عن مواجهة الايمان بالعقل » وصفت العقل والكتاب المقدس بأن كليهما وحى من عند الله ، ومن ثم كان التناقض بينهما أمراً بعيد الاحتمال .

ويتساءل بيل كيف أن الاله الطيب الخير المطلع سلفا « على كل ما هنالك من ثمار » يمكن أن يجيز اغراء حواء ، فرد ليبنتز على هذا بأن الله ، لكى يؤهل الانسان للمبادىء الأخلاقية ، خلق له ارادة حرة ، ومن ثم حرية الخطيئة ، وحقا ان الارادة الحرة تبدو غير ملتئمة مع العلم واللاهوت كليهما ، فالعلم يرى فى كل مكان حكم قانون لا يتغير ، والحرية الانسانية مضيعة فى سابق علم الله وحتمية كل الأحداث قضاء وقدرا . ولكننا ، كما قال ليبنتز ، واعون فى عناد واصرار وبشكل مباشر أننا أحرار غير مقيدين . اننا ، على الرغم من عدم قدرتنا على البرهنة على هذه الحرية ، يجدر بنا أن نقبلها شرطا أساسيا لأى معنى من معانى المسئولية الأخلاقية ، وبديلا وحيدا لاعتبار الانسان آلة فسيولوجية عاجزة بشكل سخيف مضحك .

أما بالنسبة لوجود الله ، فان ليبنتز مقتنع بالحجج التقليدية السكولاسية ، نحن نتصور كائنا كاملا ، وحيث أن الوجود عنصر ضرورى فى الكمال ، فالكائن الكامل لابد أن يكون موجودا ، ولابد أن يكون هناك عنصر ضرورى وكائن موجود بذاته (غير مخلق) وراء كل العلل القريبة والأحداث المحتملة الوقوع ، وليس من المفهوم أن يكون لعظمة الطبيعة ونظامها أى مصدر الا « ذكاء أسمى » ، ولابد أن يكون للخالق فى ذاته ، وبدرجة غير متناهية ، كل القوة والعلم والمعرفة والارادة التى كشفت فى مخلوقاته ، والتدبير الالهى والآلية الكونية غير متعارضتين ، فالعناية الالهية تستخدم الآلية لانجاز عجائبها ، ويستطيع الله أن يربك أو يوقف آلة العالم من آن الى آن ، ليظهر معجزة أو معجزتين (٦٦) ،

والنفس بطبيعة الحال ، خالدة ، والموت ، مثل الولادة ، هو مجرد تغيير فى الشكل فى مجموعة من المونادات ، وتبقى النفس والطاقة المتأصلتان ، وفيما عدا الله تكون النفس دائما ملازمة للجسم ، والجسم ملازم للنفس ، ولكن سيكون هناك بعث للجسم ، كما سيكون هناك بعث للنفس (٦٧) (وليبنتز هنا كاثوليكى فاضل » وفيما دون الانسان يكون خلود النفس غير شخصي (مجرد اعادة توزيع للطاقة) ، والنفس العقلانية فى الانسان وحدها هى التى تتمتع بخلود واع ،

والخير والشر اصطلاحان من صنع الانسان نحددهما تبعا للذتنا أو ألمنا ، ولا يمكن تطبيقهما على الكون دون افتراض أن للانسان من العلم ما لا يجوز الا لله ، وقد يكون النقص فى الجزء مطلوبا لكمال أعظم فى الكل (٦٨) ، وعلى هذا فالخطيئة شر ، ولكنها نتيجة الارادة الحرة التى هى خير ، وحتى خطيئة آدم وحواء كانت من بعض النواحى « خطيئة سعيدة » حيث كان من نتيجتها مجىء المسيح (٦٩) « وليس فى الكون ،، فوضي ولا اضطراب الا من حيث المظهر (٧٠) » ، ان آلام الناس ونوائبهم « تسهم فى الخير الأعظم عند من يعانون منها (٧١) » ، وحتى :

لو تمسكنا ،، ،، بالرأى السائد بان عدد الناس المقدر عليهم الشقاء الأبدى ، سيكون أكبر بشكل لا يقارن ، من

الذين كتب لهم الخلاص ، فيجدر بنا أن نذكر أن الشر لا يمكن أن يبدو الا ضئيلا الى حد العدم بالمقارنة مع الخير ، اذا تأمل المرء السعة الحقيقية « لمدينة الله » (للجنة) ... وحيث أن هذا الجزء من الكون الذى نعرفه ليس الا شيئا لا يذكر الى جانب الجزء الذى لا نعرف عنه شيئا ... فقد يكون كل الشر ضئيلا الى حد العدم تقريبا ، اذا قورن بالأشياء الطيبة الموجودة فى الكون (٧٢) .. .. ولسنا بحاجة حتى الى الموافقة على أن فى الجنس البشرى شراً أكثر مما فيه من خير . فانه من الممكن ، بل انه لشيء معقول أن تكون سعادة غير المغضوب عليهم وكمالهم أعظم بكثير من شقاء المغضوب عليهم ونقصهم (٧٣) .

وهذه الدنيا ، مهما بدأ من نقصها أمام أعيننا المشبعة بالأنانية هى أحسن ما كان يمكن أن يخلقه الله ، حيث ترك البشر أناسي وأحرارا . واذا كانت ثمة دنيا أحسن فى حيز الامكان فلنكن على يقين من أن الله يمكن أن يخلقها

ان الكمال الأسمى لله يستتبع أنه فى خلق الكون ، اختار (سبحانه) أفضل خطة ممكنة ، بما فيها أعظم تنوع مع أعظم نظام ، وأفضل وضع ومكان وزمان ترتيبا ، وأعظم النتائج توفرها أبسط الوسائل وأعظم قوة وأعظم معرفة وأعظم سعادة وأعظم خير فى الأشياء المخلوقة التى سلم بها الكون أو أفسح لها مجالا . وبما أن كل الأشياء الممكن وجودها تطالب بحق الوجود فى عقل الله بنسبة درجة كمالها ، فان نتيجة كل هذه المطالبات لابد أن تكون أكمل دنيا ممكنة فعلا (٧٤) .

ولا يمكن أن نوصي اليوم بقراءة شيء أكثر من ذلك فى « ثيودوسية » لبينتز ، اللهم الا الذين يقدرون أعظم تقدير سخرية « كانديد » المريرة .

٧ ـ اهتمامات فكرية متنوعة

ومهما يكن من أمر فان « الثيوديسية » أصبحت أوسع كتب ليبنتز انتشارا وأكثر ما أقبل الناس على قراءته منها ، وعرفه الناس بأنه « رجل أفضل العوالم الممكن وجودها » . واذا كان لنا أن نأسف لهذا السخف الذى يهذب ويثقف فى هذا العمل العظيم ، فان اجلالنا للمؤلف يحيا ويتجدد اذا أجلنا الطرف فى التنوع الغزير لاهتماماته الفكرية . وقد افتتن بالعلم ولو أنه كان جانبا من فكره . وقال ليبنتز لبيل يوما ئـ لو أنه عاش حياة ثانية لأصبح عالما بيولوجيا (٧٥) . وكان من أعمق الرياضيين فى عصر زخر بهم . وبذ ديكارت فى صياغة « مقياس القوة * » . أما تصوره للمادة على أنها طاقة فكان فى نظر عصره لحنا ميتافيزيقيا ، ولكنه الآن فى أيامنا هذه أمر مألوف فى الفيزياء . ووصف المادة بأنها ادراكنا المهوش أو المضطرب لعمليات القوة . ونبذ ، مثل معاصرينا من أصحاب النظريات « الحركة المطلقة » التى افترضها نيوتن ، وقال بأن « الحركة هى مجرد تغيير فى الأوضاع النسبية للأجسام ، ومن ثم ليست شيئا مطلقا ، بل متضمنة فى علاقة (٧٦) » . واستبق كانت فى تفسير المكان والزمان ، لا على أنهما حقائق موضوعية ، بل علاقات مدركة حسيا : المكان مدرك حسيا على أنه تصاحب فى التواجد ، والزمان مدرك حسيا على أنه تعاقب ـ وهى آراء تتبناها اليوم نظريات النسبية . وفى عامه الأخير (١٧١٥) دخل ليبنتز فى مراسلات طويلة مع صمويل كلارك عن الجاذبية الأرضية ، التى بدت له صفة خاصة تكتنفها الأسرار ، تعمل على مسافات هائلة جدا عبر فراغ ظاهر ، واعترض ليبنتز بأنها قد تكون معجزة متصلة لا تنقطع ، فأجاب كلارك بأنها ليست أعظم من « التناسق الأزلى (٧٧) » ، وأبدى ليبنتز خوفه من أن تؤدى نظرية نيوتن فى الآلية الكونية الى كثير من الالحاد ، فاجاب كلارك ، على العكس ، ان النظام المهيب الذى كشف نيوتن غوامضه قد يقوى الايمان بالله (٧٨) . وبررت الأحداث اللاحقة رأى ليبنتز .

---

* كانت صيغة ديكارت ك س ـ مقدار الحركة الكتلة مضروبا فى السرعة . فعدلها ليبنتز بناء على كتاب جاليليو الى ك س٢ . والقانون السائد الآن : ½ ك س٢ .

وفى علم الحياة (البيولوجيا) تصور ليبنتز « التطور » بشكل غامض • ورأى ، مثل كثير من المفكرين قبله وبعده « قانون الاستمرار » نافذا فى العالم العضوى ، ولكنه امتد بالفكرة كذلك الى العالم المظنون أنه غير عضوى : فكل شيء نقطة أو طور فى سلسلة لا نهاية لها ، مرتبط بكل شيء غيره عن طريق عدد غير محدود من أشكال وسيطة (٧٩) ، فهناك كما يقال ، حساب اللامتناهيات فى الصغر يجرى فى الحقيقة •

ليس ثمة شيء يتم على الفور • ومن حكمى البليغة ••• ان الطبيعة لا تقوم بقفزات •• •• ويعلن قانون الاستمرار أننا ننتقل من الأصغر الى الأكبر والعكس بالعكس عبر الوسط ، درجة درجة ، وجزءا جزءا على حد سواء (٨٠) • (وينازع فى هذا كثير من الفيزيائيين اليوم) ••• والناس مترابطون مع الحيوانات • والحيوانات مترابطة مع النبات ، وهذه ثانية مع الأحافير والمستحاثات ، وهى بدورها مرتبطة بتلك الأجسام التى يصورها لنا الاحساس والخيال ميتة وغير عضوية تماما (٨١) •

وفى هذا « الاستمرار » المهيب تذوب كل التناقضات ، عن طريق سلسلة ضخمة من فوارق توجد ونادرا ما يتيسر ادراكها ادراكا حسيا ، من أبسط المواد الى أكثرها تعقيدا ، ومن أصغر الحيوانات الدنيا التى ترى بالمجهر الى أعظم حاكم أو عبقرى أو قديس •

ويبدو أن ذهن ليبنتز قاس كل هذا الاستمرار الذى وصفه ، وكان حسن الاطلاع على كل علم ، وعرف تاريخ الأمم والفلسفة • وكم مس مسا رقيقا الشئون العالميـة للكثير من الدول ، كما كان على علم تام بالذات وبالله • وفى ١٦٩٣ نشر بحثا عن نشأة الأرض وبدايتها متجاهلا سفر التكوين تجاهلا تاما • وطور أفكاره الجيولوجية وتوسع فيها فى رسالة « بروتوجيا » نشرت ١٧٤٩ بعد وفاته • وذهب الى أن كوكبنا كان يوما كرة ملتهبة ، ثم بردت شيئا فشيئا ، وكونت قشرة ، وعندما بردت تكاثف البخار بها الى مياه ومحيطات ـ وأصبح الماء ملحا بذوبان ما فى القشرة من معادن • وكانت التغييرات الجيولوجية ، التى تلت ذلك ، أما نتيجة لفعل المياه التى فاضت على السطح تاركة تكوينات رسوبية ، أو نتيجة

انفجار الغازات التى تحت الأرض ، مخلفة صخوراً بركانية • وأوردت نفس الرسالة تفسيرا بارعا للأحافير أو المستحاثات (٨٢) ، وخطت نحو نظرية للتطور • وبدا له « جديرا بالاعتقاد ، أنه من خلال هذه التغييرات البعيدة المدى » فى القشرة الأرضية » ، « تحولت مرات ومرات حتى أجناس الحيوان (٨٣) » • وقال بأنه من المحتمل أن أقدم الحيوانات الأولى كانت بحرية ، انحدرت منها البرمائيات والحيوانات البرية (٨٤) • ورأى ليبنتز - مثل بعض المتفائلين فى القرن التاسع عشر - ، فى هذا التحول التطورى ، أساسا للاعتقاد « بتقدم الكون تقدما متصلا لا يعوقه شيء •• لن يقف التقدم عند حد أبدا (٨٥) » •

وانتقل ليبنتز من علم الحياة (البيولوجيا) الى القانون الرومانى ، ومنه الى فلسفة الصين • وأفادت رسالته « آخر الأنباء من الصين » ١٦٩٧ فى لهف شديد ، من التقارير التى كان يرسلها المبشرون والتجار من « المملكة الوسطى » • ورأى أنه من الجائز أن يكون الصينيون قد وصلوا فى الفلسفة والرياضة والطب الى كشوف يكون فيها أكبر العون للحضارة الغربية • وحث على اقامة روابط ثقافية مع روسيا ، لتكون من ناحية ، وسيلة لبدء الاتصال الثقافى مع الشرق• وتبادل ليبنتز الرسائل مع الباحثين ورجال العلوم ورجال السياسة والحكم فى عشرين بلدا بثلاث لغات • وكتب نحو ثلثمائة رسالة فى العام • و ١٥ ألفاً منها محفوظة (٨٦) • وقد تنافسه رسائل فولتير من حيث الكم ، لا من حيث التنوع الفكرى • واقترح ليبنتز ندوة عالمية ثقافية يتبادل رجال العلم والمعرفة عن طريقها ، أفكارهم وآراءهم ويعرضونها للبحث والمقارنة (٨٧) ، وعمل على ايجاد لغة عالمية - « حروف عالمية » يكون فيها لكل فكرة فى الفلسفة والعلوم رمزا وحرف خاص ، حتى يتمكن المفكرون من معالجة هذه الأفكار بهذه المجموعة من الرموز ، مثلما استخدم الرياضيون العلامات للكميات • وبهذا اقترب من تأسيس المنطق الرياضي والرمزى (٨٨) • وبشيء من هذا العبث اللطيف وزع ليبنتز نفسه بين مجالات كثيرة الى حد أنه لم يكن يترك وراءه الا قصاصات أو شذرات •

ولم يجد فيلسوفنا الشغوف بالعلم المتعدد جوانب المعرفة فسحة من الوقت للزواج • وأخيرا وهو فى سن الخمسين فكر فى الزواج ،

ولكن ، كما يقول فونتنيل « أمهلته السيدة التى طلب يدها ، لتتدبر الأمر ، وحيث تهيأت له فرصة لاعادة النظر فى الموضوع ، فانه لم يتروج قط (٨٩) » • وبعد جولاته وتحليقاته فى الدبلوماسية طوى نفسه على دراساته معتزا بالعكوف عليها فى عزلة •• ان الرجل الذى كان قد نقب بذهنه فى نصف العالم ، باعد الآن بينه وبين أصدقائه • وتفرغ للقراءة والكتابة ، حتى أثناء الليل • وقلما تنبه لأيام الآحاد أو العطلة • ولم يكن لديه خادم ، وكان يبعث فى طلب وجبات الطعام من الخارج ، وتناولها وحيدا فى غرفته (٩٠) • فاذا غادرها يوما ، كان ذلك من أجل القيام ببعض الأبحاث ، أو لمتابعة مشروعاته من أجل النهوض بالمعرفة أو العلوم أو خلق جو من التفاهم •

وراوده حلم انشاء كاديميات فى العواصم الكبرى ، ونجح فى واحدة منها ، فأسست أكاديمية برلين (١٧٠٠) بناء على مبادرته ، وانتخبته أول رئيس لها • وقابل بطرس الأكبر فى تورجو (١٧١٢) ، ثم فى كار لسباد وبيرمونت ، واقترح أكاديمية مماثلة فى سانت بطرسبرج ، وحمله القيصر بالهدايا ، وتبنى اقتراحه فى حكم روسيا عن طريق « وحدات » ادارية ، ولكن ليبنتز ، لم يعمر حتى يرى أكاديمية سانت بطرسبرج صرحا قائما فى ١٧٢٤ • ونلتقى به فى ١٧١٢ فى فيينا متلهفا للحصول على منصب امبراطورى ، حاملا معه مشروع أكاديمية أخرى • وقدم لشارل السادس خطة لانشاء معهد لا يقتصر على العلوم ، بل يضم التربية والزراعة والصناعة ، وعرض خدماته لادارة المعهد • ورفعه الامبراطور الى مرتبة النبلاء ، وعينه عضوا فى المجلس الامبراطورى (١٧١٢) •

وأغضب طول تغيبه عن هانوفر الناخب الجديد جورج • وقطع راتبه فترة من الزمن وأنذر بأنه قد آن الأوان بعد مضي ربع قرن من التعويق والتسويف ، للانتهاء من كتابه عن تاريخ أسرة برنزويك • وعند وفاة الملكة آن غادر جورج هانوفر ليتسلم عرش انجلترا • وبعد ثلاثة أيام من هذا الرحيل ، وصل ليبنتز من فيينا ١٧١٤ • وكان يأمل فى أن يذهبوا به الى لندن حيث ينعم هناك بمنصب أرفع ورواتب أكبر ، وبعث الى الملك الجديد برسائل يسترضيه فيها • ولكن جورج رد بأنه من الخير ان يبقى ليبنتز فى هانوفر حتى ينجز الحوليات (٩١) •

ناهيك بأن انجلترا لم تكن غفرت له نزاعه مع نيوتن حول أيهما وضع حساب التفاضل والتكامل •

واستبد به اليأس والوحدة ، وعاش عامين آخرين كافح فيهما من أجل الايمان بحسن نية الكون ومقاصده ، ان الرجل الذى عرفوه فى القرن الثامن عشر بأنه رسول التفاؤل قضي نحبه متأثرا بداء النقرس وحصاة الكلى فى هانوفر ، فى ١٤ نوفمبر ١٧١٦ • ولم تحفل بموته أكاديمية برلين ، ولا رجال الحاشية الألمان فى لندن ، ولا أى من أصدقائه فى البلد ، ولم يحضر أحد من رجال الدين للقيام بالطقوس الدينية للفيلسوف الذى كان يدافع عن الدين ضد الفلسفة • ولم يشيع جنازته الا رجل واحد ، هو سكرتيره السابق • وكتب اسكتلندى كان آنذاك فى هانوفر « ووري ليبنتز التراب أقرب شبها بلص ، منه بما كان عليه حقا : درة فى جبين بلاده ومفخرة لها (٩٢) » •

وجدير بنا ألا نشغل الصفحات ببيان أوجه الخلل والنقص فى هذا الركام المتعدد الأشكال من الأفكار ، فقد قام الزمن منذ عهد بعيد بهذه المهمة الثقيلة • واتهم النقاد ليبنتز بسرقات كثيرة واضحة فى كل ما كتبه أو قال به • وعثروا على علم النفس الذى جاء به عند أفلاطون ، والعدل الالهى عند الفلاسفة السكولاسيين ، والمونادات عند برونو ، والميتافيزيقا والأخلاق وعلاقة الذهن بالجسم عند سبينوزا ، ولكن من الذى يستطيع أن يقول عن هذه المسائل شيئا غير ما قيل منذ مائة عام • أنه لأيسر أن يكون المرء أصيلا وأحمق من ان يكون أصيلا وحكيما • وهناك ألف من الأخطاء المحتملة فى كل حقيقة ، ولم يستنفذ الجنس البشرى بعد كل الامكانات مع ما بذل من جهود ومحاولات • وهناك هراء كثير فى ليبنتز ، ولكنا لا نستطيع الجزم بأنه كان هراء أمينا ، او أنه كان تغييرا وقائيا فى اللون ، انه يقول لنا بأنه الله حين خلق الدنيا رأى سبحانه فى ومضة ، كل ما كان سيحدث فى أدق تفاصيله (٩٣) • وقال « أنا دائما أبدأ فيلسوفا ، ولكنى دائما انتهى رجلا من رجال اللاهوت (٩٤) » • أى أنه أحس ان الفلسفة تخطىء هدفها اذا لم تؤد الى الفضيلة والتقوى •

وهيأ له حواره الطويل الذكى مع جون لوك واحدا من ادعاءاته

الكثيرة ، الا وهو ادعاء الفكر الثاقب ذى القيمة والأهمية . وربما بالغ فى فطرية « الأفكار الفطرية » ، ولكنه سلم بأنها قدرات أو مواهب أو استعدادات ، وليست أفكاراً وأفلح فى اظهار أن المذهب الحسي عند لوك كان قد بالغ فى تبسيط عملية المعرفة ، وأن « الذهن » بطبيعته - اذا كان خاليا فجاً عند الولادة - انما هو عضو للاستقبال الفعال للأحاسيس ومعالجتها وتحويلها ، وهنا ، يقف ليبنتز ، كما يقف فى آرائه عن المكان والزمان ، شامخا ، مبشرا بكانت . واكتنفت الصعوبات نظرية المونادات (اذا لم تكن ممتدة ، فكيف يتسنى لأى عدد منها أن يحدث امتدادا ؟ واذا كانت « تدرك » الكون ادراكا حسيا فكيف يكون لديها مناعة ضد أى تأثير خارجى ؟) ، ولكنها كانت محاولة بارعة أن يجتاز الهوة بين الذهن والمادة ، حين جعل المادة عقلية ، ولم يجعل الذهن ماديا ، وأخفق ليبنتز بطبيعة الحال فى التوفيق بين الآلية والتدبير فى الطبيعة ، أو بين الآلية فى الجسم والحرية فى الارادة . وكان فصله بين الذهن والجسم من جديد ، بعد أن كان سبينوزا قد وحد بينهما فى عملية ذات جانبين ، خطوة الى الوراء فى الفلسفة . وكان زعمه أن هذا أفضل العوالم الممكنة مسعى حميدا مشجعا مفعما بالأمل ، من جانب رجل البلاط ، للتسرية عن ملكة ، ان أعلم الفلاسفة (أكاديمية بأسرها فى شخصه - كما قال عنه فردريك الأكبر) كتب لاهوتا ، كأن شيئا لم يحدث فى تاريخ الفكر منذ سانت أوغسطين . ولكن مع كل مواطن الضعف فيه كانت انجازاته فى العلوم والفلسفة ضخمة . وكان محبا لوطنه ومع ذلك « أوربيا صالحا » ، فأعاد الى ألمانيا مكانا مرموقا فى تنمية الحضارة الأوربية وتطويرها . وكتب فردريك الثانى « من كل الذين رفعوا من شأن ألمانيا ، قام توماسيوس وليبنتز بأجل الخدمات للروح الانسانية (٩٥) » .

وضعف تأثير ليبنتز عندما قلت قيمة لاهوته أمام الوعى الأخلاقى عند الناس ، وعلى مدى جيل بعد وفاته أعاد كريستيان فون ولف صياغة فلسفته صياغة مرتبة . وفى هذا الشكل المعدل أصبحت النمط الفكرى السائد المسيطر فى الجامعات الألمانية . وكان أثره خارج ألمانيا يسيرا . ولو أن معظم كتاباته كانت باللغة الفرنسية ، فانها كانت عبارة عن قصاصات لا تشكل عملا قويا متماسكا أو مركزا . ولم تظهر حتى ١٨٦٨ أية طبعة تجمعها ، بل انه فى تلك السنة أيضا استبعدت بعض الفقرات

الهامة ، ولكنها كانت مشوبة بالهرطقة ، وكان لزامـــا أن تنتظر حتى ١٩٠١ لتطبع • وكتب الفوز للرموز التى وضعها لحســاب التفاضـل والتكامل ، ولكن لمدة نصف قرن حمل منافساه نيـوتن ولوك كل شيء أمامهما ، وأصبحا معبودى عصر الاستنارة فى فرنســا • ولكن حتى وسط نشوة العقل هذه ، قدر بوفون أن ليبنتز أعظــم عبقــرية فى عصره (٩٦) • أما المفكر الألمانى اللامع فى القـــرن العشرين أوزوالد شبنجلر فقد اعتبر ليبنتز « أعظم عقل فى الفلسفة الغربية بلا نزاع(٩٧) »

ولكى تنتظم هذه الذرى جميعا فى عقد واحد ، يمكن القول فى جملة واحدة بأن القرن السابع عشر كان أخصب حقبة فى تاريخ الفكر الحديث • فهنا فى بيكون وديكارت وهوبز وسبينوزا ولوك وبيل وليبنتز ، كانت سلسلة متعاقبة من رجال حميت صدورهم بخمرة العقل ، واثقين فى ابتهاج بأنهم (أو معظمهم) استطاعوا أن يفهموا الكون ، حتى الى حد تكوين فكرات « واضحة متميزة » عن الله ، والى حد أنهم جميعا ـ فيما عدا الأخير ـ قادوا الى تلك الاستنارة الذكية العــارمة التى كان لزاما أن تهز الدين والحكومة كلتيهما معــا هـــزا عنيفا فى الثــورة الفرنسية • وتنبأ ليبنتز بهذه النهاية ، وعلى حين ظل لآخر لحظة يدافع عن حرية الكلام (٩٨) • فانه حث المفكرين الأحرار على التفكير فى أثر كلماتهم الملفوظة أو المكتوبة على أخلاق الناس وروحهم وفى « الأبحاث الجديدة » حوالى سنة ١٧٠٠ كتب تحذيرا رائعا :

> اذا كان الانصاف يقتضي الابقاء على المفكرين الأحرار، فان التقوى تقتضي ابراز الآثار السيئة لمبادئهم وتعاليمهم ، كلما أمكن ذلك ، اذا كانت تتعارض مع الايمان بتدبير اله بالغ الكمال فى الحكمة والخير والعدل ، وتتعارض مع خلود الأنفس ، ذلك الايمــان الــذى يجعــلهم سريعى التأثر والحساسية لآثار عدالته ، فلا يتحدثون عن آراء خطــرة بالنسبة للاخلاق والشرطة • وانى لأعلم أن رجالا ممتازين يتسمون بحسن النية يرون أن لمثل هذه الآراء النظرية على السلوك والممارسة أثرا أقل مما يظن • كما أعلم أيضــا ان هناك أشخاصا ذوى ميول طيبة فلا تحدوهم مثل هذه الآراء الى الاتيان بأى شيء غير جدير بهم ••• وقد يقال بأن أبيقور

وسبينوزا عاشا حياة مثالية تماما ، ولكن هـذه الدواعى غالبا ما تنقطع فى تلاميذهم ومقلديهـم الذين يطلقون ، اعتقادا منهم بأنهم تخلصوا من الخوف المزعـج من عناية الهية متربصة مراقبة ، ومن الخوف من مستقبل ينذر بالويل والثبور - يطلقون العنان لشهواتهم البهيمية وأهوائهـم الوحشية ، ويصرفون أذهانهم الى اغواء الآخرين وافسادهم. واذا استبد بهم الطموح والطمع ، أو كانوا ذوى ميول جافية نوعا ما ، فقد يسوغون لأنفسهم ، رغبة فى البهجة والسرور أو التقدم والرقى ، أن يشعلوا النار فى أربعة أركان المعمورة. لقد عرفت هذا من طبيعة وخلق بعض من طواهم الردى ، وانى لأجد كذلك آراء شبيهة ، تندس ، شيئا فشيئا الى أذهان رجال من ذوى المكانة الرفيعـة المترفين الذين يحكمـون الناس ويتحكمون فى مصائر الأمور ، كما تندس فى الكتب العصرية، وهى آراء تنزع بكل شيء الى الثورة العامة التى تهـدد أوربا (٩٩) .

وانا لنلمح فى ثنايا هذه السطور روح القلق الموسوم بالاخلاص ، وينبغى أن ننظر بالتقدير والاجلال الى نصيحة التحـذير التى تعبر عنها . ومع ذلك فانه بعد أن محقت الاستنارة كل المذاهب الدينية ، وأشعلت الثورة الفرنسية النار فى أربعة أركان المعمـورة ، ونقعت مذابح سبتمبر غلة الآلهة بشكل عابر ، استطاع مؤرخ كبير أن ينظر الى الوراء ، الى هذا العصر الأول من عصور العلوم والفلسفة الحديثة ، ويرى فى المغامرين فيه ، لا مدمرين للحضارة ، بل محررين للجنس البشرى . قال لكى Leeky

هكذا درب معلمو القرن السابع عشر العظـام ... أذهان الناس ونظموها من أجل البحث والتحقيق المجردين غير المتحيزين ، وفجروا ، بعد أن حطموا التعويذة التى شلت حركتهـم زمنا طويلا ، ينبوعا من الحب الخالص للحقيقة التى أحدثت ثورة وتغييرا فى كل جوانب المعرفة . والى هذا الدافع الذى انتقـل آنذاك ، يمكننا أن نتعقب حركة حاسمة كبيرة جددت كل التاريخ . وكل العـلوم ،

وكل اللاهوت — وهى حركة نفذت الى أخفى الأعماق ، مدمرة الحزازات القديمة ، مبددة الأوهام ، معيدة ترتيب .. .. معرفتنا ، مغيرة كل مدى وطبيعة تعاطفاتنا واهتماماتنا وربما كان ضربا من المحال أن يتم كل هذا لولا انتشار روح عقلانية (١٠٠) .

وهكذا من حسن الحظ أو لسوء الحظ ، وضع القرن السابع عشر أسس الفكر الحديث . لقد كانت النهضة مقيدة بالآراء القديمة التقليدية والطقوس الكاثوليكية والفن الكاثوليكى . وكان الاصلاح الدينى مرتبطا بالمسيحية البدائية وعقيدة العصور الوسطى . أما هذه الحقبة الغنية الحاسمة ، من جاليليو الى نيوتن ، ومن ديكارت الى بيل ، ومن بيكون الى لوك ، فقد ولت وجهها شطر مستقبل غير معلوم بشر بكل أخطار الحرية ، وهى حقبة استحقت ربما حتى أكثر من القرن الثامن عشر أن تسمى « عصر العقل ، لأنها على الرغم من أن المفكرين فيها ظلوا أقلية ضئيلة ، فانهم أظهروا اعتدالا أحكم ، وسبروا أعمق لأغوار العقل والحرية ، وما يكتنفهما من مشاق ، من أبطال الاستنارة الفرنسية الذين فك وثاقهم . ومهما يكن من أمر فان المسرحية الكبرى فى التاريخ الحديث ، كانت قد مثلت فصلها الثانى ، وقاربت نهايتها .